حمدا لك اللهم ، بك المعونة والتوفيق ، ومنك الهداية لأقوم طريق ، إذا أظلمت الشبهات ، فى دجنة الخطوب المُدلهمات ، وبفضلك نطلب يقينا يملأ الصدر ، ويستولى على زمام القلب ، ويكتب سورة النفس ، فيردها عن غيها ، ويكبح جماح شواتها ، فانك الملجأ والنصير والمعين ، وصلاة وسلاما على محمد عبدك ورسولك الذى آتيته الحكمة وفصل الخطاب ، وعصمته من الخطأ وألهمته الصواب ، ومننت عليه بفضيلة البيان ، فقند بقاطع حجته قول من عارضه من أهل الزور والبهتان .

وبعد ـ فأن موضع علوم البيان من علوم العربية ، موضع الرأس من الإنسان ، أو اليتيمة من قلائد العقيان ، فهى مستودع سرها ، ومظهر جلالها ، فلا فضيلة لكلام على كلام ، إلا بما يحويه من لطائفها ، ويودع فيه من مزاياها وخصائصها ، ولا تبريز لمتكلم على آخر ، إلا بما يحوكه من وشيها ، ويلفظه من درها ، وينفثه من سحرها ، ويجنيه من يانع ثمرها .

إلى أن بها نعرف وجه اعجاز القرآن ، وندرك ما فيه من خصائص البيان ، ونفهم براعة أسلوبه ، وانسجام تاليفه ، وسهولة نظمه وسلامته ، وعذوبته وجزالته ، إلى أمثال تلك المحاسن التى أسالت على العرب الوادى عجزا ، حتى حارت عقولهم ، وقصرت عن بلوغ شاوه جهابذتهم وفحولهم ، حتى أضطر ذلكم المتكبر الجاحد ، والصلف المعاند ، الوليد بن المغيرة ، أن يقول فيه مقالته المأثورة ، (والله ان لكلامه لحلاوة ، وأن عليه لطلاوة ، وان أسفله لمغدق ، وان أعلاه لمورق ، وأنه ليعلو ولا يُعلى عليه ، وما هو بقول البشر) فالجاهل بأسرارها ، والمحروم من أقتطاف جنى ثمارها ، لا يعرف وجه الإعجاز إلا بالتقليد ، ولا يعلم ذلك إلا بالسماع ، فسواء فى قضية النظر ، هو والزنجى

والبربرى ، والفارسى والنبطى ، إذ كل أولئك يتلقونه سماعا ، ويصل إليهم علمه مشافهة .

مما تقدم تعلم جليل خطرها ، وعظيم منزلتها ، وإنها لا تدانيها منزلة علم آخر من علوم العربية ، فلا غرو إذا اتجهت همم العلماء والباحثين فى مختلف العصور إلى التأليف فيها ، وبسط القول فى بيان مغازيها ومراميها ، وقد رأينا أن ندلى دلونا بين الدلاء ، ونشرب بسهم فى هذا الميدان ، والله ولى التوفيق ، والهادى لأقوم طريق .

أحمد مصطفى المراغى

نبـــذة
فى تاريخ علوم البيان أو علوم النقد أو علوم البلاغة

١ - الحاجـة إلى وضـع قواعدهـا

(أ) أشتعلت نار الجدل صدر الدولة العباسية حتى أندلع لهيبها وتطاير شررها إلى جميع أنحاء البلاد الإسلامية ردَحا من الزمن غير قليل بين أئمة الأدب وأرباب المقالات من علماء الكلام فى بيان وجه اعجاز القرآن ، وأختلفوا فى ذلك طرائق قددا ، وتفرقوا أيدى سبا ، وتعددت نزعاتهم ، وتضاربت مذاهبهم وآراؤهم كما هو مسطور فى زبر المتكلمين كالمواقف لعضد الدين والمقاصد لسعد الدين التفتازانى .

وكان الرأى الآفن من بين هذه الآراء وأبعدها عن الصواب ، رأى إبراهيم النظام صاحب المذهب الذى ينسب إليه (مذهب الصَّرفة) إذ قال أن القرآن ليس معجزا بفصاحته وبلاغته ، وأن العرب كانوا قادرين على أن يأتوا بمثله ، لكن الله صرفهم عن ذلك تصديقا لنبيه ، وتأييدا لرسوله حتى يؤدى رسالات ربه ، فأنبرى للرد عليه جمّ غفير من العلماء من بينهم الجاحظ والباقلانى وأمام الحرمين والفخر الرازى ، وناضلوا نضالهم المحمود الذى خلد لهم فى بطون الأسفار فكتبوا الفصول الممتعة مبينين خطل رأيه وفساد مذهبه ، بما أملته عليهم قرائحهم الوقادة ، وأفكارهم النقادة ، حتى لم يبق فى القوس منزع ، ولا زيادة لمستزيد .

(ب) كذلك قامت سوق نافعة للحجَاج والمناظرة ، بين أئمة اللغة والنحو أنصار الشعر الجاهلى ، الذين رأوا أن الخير كل الخير فى المحافظة على أساليب العرب وأوضاعها ، والأدباء والشعراء أنصار الشعر المحدَث الذين لم يحفلوا بما درج عليه أسلافهم من العرب ، ورأوا أنهم فى حل من كل قديم ، لا يشاكل بيئة الحضارة التى غذوا بلبانها وربوا فى أحضانها ، ولم يكن العرب ليحملوا بها من قبل ، ولو أن القدر

أتاح لهم أن يروا زخارف تلك المدينة ، وطرائف لطائفها ، لكان لهم شان فى آدابهم . ومهيع فى أساليبهم غير شانهم هذا .

(جـ) أضف إلى تلك الضوضاء وذلك اللَّجَب ، ما شجر من الخلاف بين أئمة الأدب وأساطينه ، فى بيان وجوه تحسين الكلام حتى يرقى فى سلم البلاغة ، وينال قسطه من الفصاحة ، وتناقضت آراؤهم فى ذلك ايما تناقض ، ففريق مال إلى رصين الكلام الجامع بين العذوبة والجزالة ، وفريق أولع بالمنطق الموشى المشتمل على صنعة البديع ، يرشد إلى ذلك ما تراه فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينَورى المتوفى سنة ٧٢٦ هـ حين حكم على تلك الأبيات المشهورة لكثيّر عزة بأنها مونقة خلابة فى لفظها لكنك إذا فتشتها وبحثت عن ذات نفسها لم تحل منها بطائل ، وهى :

ولما قضينا من منىً كل حاجة ... ومسَّح بالأركان من هو ماسح
وشدّت على حُدب المهارى رحالنا ... ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطىّ الاباطح

ثم ما تجده فى كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى من استحسان هذه الأبيات ونقد حكم ابن قتيبة واتهام ذوقه ، ووافقه على نقده أبو الفتح بن جِنّى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ فى كتاب الخصائص ، والأمام عبد القاهر فى اسرار البلاغة وأطال الاطراء لثالثها إلى غير ذلك من مختلف الآراء مما لسنا بصدد سرده الآن .

كل أولئك لفت أنظار أئمة البلاغة إلى أن يضعوا قوانين وضوابط يتحاكمون إليها عند الأختلاف ، وتكون دستورا للناظرين فى آداب العرب منثورها ومنظومها ونشأ من ذلك البحث فى علوم البيان أو علوم البلاغة .

٢ - أول من دونها

لا نعلم أحدا سبق أبا عبيدة مَعمر بن المثنَّى الرّاوية تلميذ الخليل بن أحمد المتوفى سنة ٢١١ هـ . فقد وضع كتابا فى علم البيان سماه (مجاز القرآن) لكنه لم يرد بالمجاز

الوصف الذى ينطبق على ما وضع من القواعد بعد ، بل هو أشبه بكتاب فى اللغة توخى فيه جمع الألفاظ التى أريد بها غير معانيها الوضعية ، ألا تراه وقد سئل مرة عن قول الله عز وعلا (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) فقال هو مجاز كقول امرئ القيس (ومسنونة زرق كأنياب أغوال) .

كما لا نعرف بالضبط أول من ألف فى علم المعانى ، وأنما اثر فيه نبد عن بعض البلغاء كأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الكنانى المتوفى سنة ٢٥٥ هـ أمام الأدباء وسلطان المنشئين فى عصره والقدوة فى أساليبه التى أختص بها وتحداه فيها الأئمة من بعده .

فقد أشار إلى مسائل منه فى كتابه (**إعجاز القرآن**) وعنى فى كتابه (**البيان والتبيين**) بدرس بعض القواعد التى كثر ولوعَ القوم بها فى عصره كبيان معنى الفصاحة والبلاغة ، وحسن البيان والتخلص من الخصم ، وحسن الأسجاع ، ثم قفَّاه ابن قتيبة فى كتابه (**الشعر والشعراء**) والمبرّد فى كتابه الكامل فتعرضا لبعض نتف من هذه العلوم .

وغنى عن البيان ان المتكلمين بداءة ذى بدء فى أى فن من الفنون ، لا يحيطون بأطرافه ، ولا يتغلغلون فى أستقصاء مباحثه .

لكنا نعلم أن أول من دون البديع الخليفة عبد الله بن المعتز بن المتوكل العباسى المتوفى سنة ٢٩٦ هـ فقي أستقصى ما فى الشعر من المحسنات وألف كتابا سماه (**البديع**) ذكر فيه سبعة عشر نوعا منها الأستعارة والكناية والتورية والتجنيس والسجع إلى غير ذلك ، وقال « ما جمع قبلى فنون البديع أحد ولا سبقنى إلى تاليفه مؤلف ، ومن رأى أن يقتصر على ما أخترنا فليفعل ، ومن رأى اضافة شئ من المحاسن إليه فله أختياره » .

ومن البين أن أسم البديع بهذا الإطلاق يتناول ما سماه المتأخرون بعلم البيان ثم ألف معاصره قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى المتوفى سنة ٣١٠ هـ كتابا فى نقد الشعر سماه (**نقد قدامة**) ذكر فيه ثلاثة عشر نوعا من البديع زيادة على ما أملاه ابن المعتز فتممها ثلاثين نوعا .

تلا هذين العالمين أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكرى المتوفى سنة ٢٩٥ هـ وألف كتابه (**الصناعتين**) صناعتى النثر والنظم ، جمع فيه خمسة وثلاثين نوعا من البديع ، وبحث فيه عن عدة مسائل أخرى كالفصاحة والبلاغة والإيجاز والأطناب والحشو والتطويل وعدة أبواب فى نقد الشعر إلى غير ذلك من جليل المباحث .

وكتابه يعتبر أول مصنّف اشير فيه إلى مسائل علوم البيان الثلاثة (المعانى والبيان والبديع) .

٣ - وفى هذه العلوم بتأليف الامام عبد القاهر

تمخَّض القرن الخامس فولد نادرة البطن ، ونابغة البلغاء ، وامام حلبة الفصحاء أبا بكر عبد القاهر بن الرحمن الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ الذى نظر يمنة ويسرة فلم يجد من مسائل هذه الفنون إلا نتفا مبعثرة لا تسمن ولا تغنى من جوع ، فشمّر عن ساعد الجد ، وجمع متفرقاتها ، واقام بناءها على أسس متينة ، وركز دعائمها على أرض جَددَ لا تنهار ، وأملى من القواعد ما شاء الله أن يملى فى كتابيه (**أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز**) وأحكم بنيانها بضرب الأمثلة والشواهد ، حتى أناف بها على اليفاع ، وقرن فيهما بين العلم والعمل إذ رأى أن مسائل الفنون لا يستقر لها قارا إلا بكثرة الأمثلة والنماذج ، فالصور الإجمالية التى تؤخذ من القواعد ، أن لم تؤيدها الصور التفصيلية التى تستفاد من النماذج ، لا تتمثل فى الأذهان حق التمثل ، ولا تنجلى حقيقتها تمام الإنجلاء .

وقد ساعده على ذلك ما آتاه الله من عذوبة البيان ، وما تحلى به قلمه من الطلاوة الخلابة ، والبلاغة الساحرة للألباب .

٤ - الامام جار الله الزمخشرى

نبغ اثر عبد القاهر أستاذ المفسرين ، جار الله الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وألف تفسيره (**الكشاف**) نحا فيه نحو الغرض المقصود من تفسير التنزيل ، وهو اظهار

أسراره ، وشرح وجه اعجازه ، ببيان وفاء دلالته على المراد ، وكشف خصائصه ومزاياه التى استأثر بها حتى بلغ هذه المرتبة ، وحتى تحدى البشر بانهم لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

وغنى عن البيان له أنه لن يصل إلى تلك المنزلة إلا من أتاه الله فطرة سايمة ، ورأيا حصيفا ، وفكرا ثاقبا ، وبرهانا ساطعا ، وقلما أطوع له من بنانه حتى يتاح له بواضح البرهان ، وبديع البيان ، أن يوضح خصائص التراكيب ، ولطائف الأساليب التى هى من أسرار التنزيل ، وبذا ابان فى عرض كلامه كثيرا من قواعد هذه الفنون التى اتخذها من جاء بعد ، دستورا للكلام فى كثير من مسائلها .

٥ - أبو يعقوب يوسف السكاكى

جاء بعد من تقدم ذكرهم العلامة أبو يعقوب ، يوسف السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ وألف كتابه (**مفتاح العلوم**) وجمع فى القسم الثالث منه زبدة ما كتبه الأئمة قبلة فى هذه الفنون ونظم لآلئها المتفرقة فى تضاعيف كتبهم ، وأحاط بكثير من قواعدها المبعثرة فى الامهات ، ورتبها أحسن ترتيب ، وبوبها خير تبويب ، وفصّل فنون البيان الثلاثة بعضها من بعض ، لما كان له من واسع الإطلاع ، على علوم المنطق والفلسفة .

ولولا أن المؤلف أولع بتطبيق أساليب العرب ، على علوم اليونان وإصطلاحاتهم مع ما بينهما من بعد الدار ، وشط المزار واختلاف البيئات ، وتباين المعتقدات ، لكان خير كتاب اخرج للناس فى هذه الفنون ، لجمعه شتاتها ، وضمه ما تفرق من قواعدها .

وقد أختصر مؤلفه فى كتاب آخر سماه (**التبيان**) ولخصه بعض المتاخرين فى أمهات مشهورة ، كما فعل ابن مالك فى كتابه (**المصباح**) والخطيب لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ ، فى كتابه (**تلخيص المفتاح**) و (**شرح الايضاح**) والأخير مؤلف جليل ، جمع فيه مؤلفه خلاصة المفتاح ودلائل الإعجاز وأسرا البلاغة وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجى .

٦ - الوزير ضياء الدين ابن الأثير

بينا السكاكى : يؤلف كتابه (**مفتاح العلوم**) إذا بالوزير ضياء الدين أبى الفتح نصر بن محمد الموصلى الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى المتوفى سنة ٦٣٧ هـ وزير الملك الأفضل بن صلاح الدين الأيوبى ، يصنف كتابه (**المثل السائر ، فى أدب الكاتب الشاعر**) وهو كتاب فريد فى بابه يفوق أنداده وأترابه ، جمع فيه فأوعى . ولم يترك شاردة ولا واردة ، لهما مساس بالكتابة والقريض ، الا ذكرهما بشرح واف ، يدل على طول باع ، وسعة بالكتابة والقريض ، الا ذكرهما بشرح واف ، يدل على طول باع ، وسعة اطلاع ، مع قدرة على النقد ، وبديهة حاضرة فى إدراك خصائص البلاغة ، ومن ثمة أشتمل كتابه على كثير من أبواب تلك الفنون ، وطبق عليها كثيرا من آى الكتاب والسنة النبوية وتلك منقبّة أمتاز بها من بين هاتيك المؤلفات فى تلك العلوم .

وكان يحاكى فى أسلوبه أسلوب القاضى الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ هـ وزير صلاح الدين الأيوبى (على ما بينهما من شاسع البون) وطريقة القاضى معروفة بين المتأدبين وهى من النوع الذى يغلب عليه السجع والجناس وغيرها من المحسنات اللفظية – وكانت براعة الكتاب فى هذا العصر وما بعده تظهر فى استعمال تلك الطلاوة اللفظية وبها يفوق كاتب كاتبا ، ويبذّ الأقران فى هذا الميدان .

٧ - عصور الأختصار ووضع الشروح والحواشى

طفق المؤلفون من القرن الثامن وما بعده يوسعون الشروح والحواشى على المفتاح وتلخيصه للقزوينى ، وصرفوا جل همتهم فى تفسير ما أشكل من عبارات المؤلفين ، والجمع بين ما تناقض من آرائها .

وأجل تلك الشروح شروح مسعود سعد الدين التفتازانى المتوفى سنة ٧٩١ هـ وشرح السيد الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ هـ ، ثم تتابعت التقارير والحواشى توضح ما أنبهم من تلك التراكيب المجملة ، والعبارات الغامضة ، وليس علينا من غضاضة فى التصريح بأن أساليب التأليف فى تلك العصور قد ملكت عليها

العجمة أمرها ، وجلبت عليها أنواع التعقيد بخيلها ورجلها ، فلم تكن هى الأساليب التى يجدر أن تكتب بها علوم البلاغة أو بالأحرى علوم خصائص اللسان العربى المبين .

ومن ثمة لم يكن القارئ ليجعلها قدوة فى أساليبها ، أو نماذج فى تركيبها ، فهى أحرى أن تكون أساليب إصطلاحية علمية ، لا لغوية أدبية ، تشرح خصائص كلام العرب ، وتبين مزايا أساليبه ، وما زالت تتدلى وتتدهور حتى وصلت إلى ما تراه اليوم ، تتضاءل فى أطمارها البالية ، وتنزوى أمام أهل الجيل الحاضر .

٨- تأليف معاصرينا فى هذه الفنون

أنشئت المدارس العالية والثانوية بمصر فى نهاية القرن الغابر ، وسلكت فى التربية والتعليم طريقا سويا ، لا مشاكلة بينه وبين ماتقدمه فى معاهد العرفان ، وكان فى مقدمة تلك المدارس التى شيدت ، مدرسة دار العلوم من نحو أربعين سنة ونيف ، فألف اساتذتها مختصرات تناسب تلك البرامج المدرسية ، ويسهل على الطلبة ان يحصوا على بغيتهم منها ، فحمد لهم الناس جميل صنعهم ، وأوفوهم حقهم فى الثناء والتقريظ مقدار ما كان لمؤلفاتهم من الميزة أبان ظهورها .

وفى الحق أن تلك الرسائل وأن أختلف ترتيبها وتنوع تبويبها ، تنحو على الجملة فى أسلوبها ، منحى ما كتبه صاحب التلخيص وشراحه ، وتسير على خطتهم وتحذو حذوهم (**وقد عرفت حال هذه التآليف**) فضلا عن خلوها من الأمثلة المنوعة التى تتضح بها مجملات تلك القواعد .

وأفضل تلك المختصرات كتاب (**دروس البلاغة**) فهو على ايجازه الذى لوحظ فيه حال النشء وهم فى بدء تحصيل مختلف العلوم ، كفيل بتصوير القواعد فى أذهانهم جهد المستطاع .

٩ - طريقنا فى التأليف

رأينا أن نضع كتابا يجمع بين طريق المتقدمين ، من سعة الشرح والبيان ، والأعتماد على الأمثلة والشواهد ، حتى تستبين للقارئ خصائص البلاغة مرموقة محسوسة ، ولطائف الكلام مجسمة ملموسة ، ويسهل تطبيق العلم على العمل ، والإجمال على التفصيل ، وذلك أمثل الطرق ، لبنائه على قواعد علم النفس ، من تعويد الناظر الركون إلى الوجدان والحس ، وطريق المتأخرين من حسن الترتيب والتبويب وجمع ما تفرق من قواعد هذه الفنون ، ليكون أنجح فى الدرس وأقرب إلى التناول .

فإذا كنا قد وفّقنا إلى ما قصدنا وهدينا إلى الغرض الذى توخينا ، فذلك من فضل الله علينا ، وأن كنا تنكّبنا عن جادّة الحق ، وأخطأنا شاكلة الصواب ، فليغض القارئ الطرف عما يراه من الهفوات ، ويعثر عليه من الزلات ، فأن الطريق وعر والمركب غير ذلول ، وقديما قال الأول (كفى المرءَ نبلا أن تعدّ معايبه) .

وليعلم أنا لم ندخر وسعا فى تمحيص ما كتبنا وتهذيبه ، وتنقيح ما رتبان وتجويده بعد أن قضينا زمنا طويلا فى البحث والتنقيب ، فى الأمهات المؤلفة فى هذه الفنون وغيرها للمتقدمين والمتأخرين ، وأطلعنا على الرسائل التى صنفها معاصرونا ومن تقدمهم ، جزى الله الجميع خيرا ، وعليه التكلان وبه المستعان .

أحمد مصطفى المراغى

فى حقيقة الفصاحة والبلاغة لغة واصطلاحا

للفصاحة لغة معان متعددة كلها تشف عن الظهور والابانة فيقال :

١- فصح اللبن وأفصح اذا أخذت عنه الرغوة قال نضْلة السلمى وتحت الرغوة اللبن الفصيح [١] .

٢- أفصح الصبح بدأ ضوءه ومنه المثل : (أفصح الصبح لذى عينين [٢]) .

٣- يوم مفصح وفصح لا غيم فيه ولاقرّ .

٤- أفصح الأعجمى بالعربية ، وفصح لسانه بها إذا خلصت لغته من اللكنَة وفى التنزيل (وأخى هرون هو أفصح منى لسانا) أى أبين منى قولا .

والبلاغة لغة تنبئ عن الوصول والإنتهاء .

يقال بلغت الغاية إذا انتهيت إليها ، ومبلغ الشئ منتهاه ، ورجل بليغ وبلْغ ويلَغ ، حسن الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه فى قلبه ، وبَلغ بالضم بلاغة صار بليغا ، وتبالغ فى كلامه تعاطى البلاغة وما هو ببليغ ، وتبالغ به الفرح والحزن تناهى .

أما البلاغة اصطلاحا فالبلغاء فى ذلك فريقان :

١- المتقدمون كالامام عبد القاهر الجرجانى ومن لف لفه ، وهؤلاء يرون ان الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة الفاظ مترادفة لا تتصف بها المفردات وإنما يوصف بها الكلام بعد توخى [٣] معانى النحو فيما بين الكلم بحسب الأغراض التى يصاغ

---

(١) يضرب مثلا للأمر ظاهره غير باطنه .

(٢) يقال الشئ ينكشف بعد استتاره .

(٣) الطلب والتحرى .

لها ، وإلى ذلك أشار فى دلائل الإعجاز فى مواضع عدة منها قبله : « فصل فى تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وكل ما شاكل ذلك مما يعبر عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد – ومن المعلوم أنه لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجرى مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة وينسب فيه الفضل والمزية إليه ، غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة ، ثم قال ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ويختار له اللفظ الذى هو أخص به وأكشف عنه وأتم له وأحرى بأن يكسبه نبْلا ويظهرفيه مزية » .

وقال قبله أبو هلال العسكرى فى الصناعتين : فى الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وأن أختلف أصلاهما ، لأن كل واحد منهما أنما هو الأبانة عن المعنى والأظهار له » .

وقال الفخر الرازى فى نهاية الإيجاز ، وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة بل يستعملونهما أستعمال الشيئين المترادفين على معنى واحد فى تسوية الحكم بينهما .

ويشهد لذلك قول الجوهرى فى الصحاح : الفصاحة : البلاغة .

وعلى هذا الرأى فمرجعهما وماشاكلهما النظم والكلام دون الألفاظ المجردة والكلمات المفردة .

٢– المتاخرون كأبى يعقوب يوسف السكاكى وابن الأثير ، ومن شايعهما ، وأولئك يرون أخراج الفصاحة من كنف [١] البلاغة ، ويجعلونها أسما لما كان بنجوة [٢] من تنافر الحروف وغرابة الألفاظ ومخالفة القياس ، إلى أخر ما سيذكر بعد ويجعلون البلاغة أسما لما طابق مقتضى الحال مع الفصاحة ، وعلى هذا الرأى فالبلاغة كلٌ والفصاحة جزؤه ، وعليه أيضا فالفصاحة من صفات المفرد كما هى من صفات المركب بحسب الأعتبرات الأتية :

---

(١) الناحية والجانب .

(٢) يقال هو بنجوة من كذا إذا كان بعيدا .

وإلى هذا أشار صاحب الصناعتين حيث قال – وقيل : الفصاحة تمام آلة البيان فهى مقصورة على اللفظ لأن الآلة تتعلق باللفظ ، والبلاغة أنما هى أنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى أ هـ .

وها نحن أولاء نشرحهما لك على الرأى الأخير فقد استقر عليه البحث ، وبالله التوفيق ، ومنه الهداية لأقوم طريق .

الفصاحـــة

تقع الفصاحة وصفا للمفرد والكلام والمتكلم .

فصاحـــة المفـرد

فصاحة المفرد تتحقق بسلامته من أربعة عيوب [1] :

١– تنافر الحروف .
٢– غرابة اللفظ .
٣– مخالفة القياس .
٤– الكراهة فى السمع .

تنافـر الحـروف

صفة فى الكلمة ينجم عنها ثقلها على اللسان وصعوبة النطق بها – ولا ضابط لذلك غير الذوق السليم ، والشعور الذى ينشأ من مزاولة أساليب البلغاء وليس منشؤة قرب مخارج الحروف كما قيل الا ترى أنك تجد الحسن فى لفظ الجيش مع تقارب مخارج حروفه ، ونحوه ، الفم والشجر وتجد لفظ ملع بمعنى أسرع متباعد المخارج وهو متنافر – ولا طول الكلمات لأنه ان صح ذلك فى نحو صهصلق [2] وخنشليل [3] وما جرى مجراهما ، فليس يصح فى نحو ليستخلفهم فى الأرض فسيكفيكهم الله .

---

(١) لتسلم من الخلل مادته وصيغته ومعناه .

(٢) الشديد من الأصوات .

(٣) السيف .

ولكن يمكن وضع ضابط اجمالى أساسه المشاهدة ، وهو أن أصول الأبنية لا تحسن إلا فى الثلاثى وفى بعض الرباعى نحو عذب وعسجده أما الخماسى الأصول نحو صهصلق وجحمرش وما جرى مجراهما فانه قبيح ، ومن ثما لم يوجد شئ من هذا الضرب فى القرآن الكريم إلا ما كان معربا من أسماء الأنبياء كإبراهيم وإسماعيل .

والتنافر ضربان :

١- شديد متناه فى الثقل كالصمعمع [١] والطسّاسيج [٢] والظّش [٣] .

٢- خفيف كالنقاخ [٤] والنقنقة [٥] والمثغنجر [٦] ومستشزرات فى قول امرئ القيس :

غدائره مستشزرات إلى العلا تضل المدارى فى مثنى ومرسل [٧]

والضمير فى غدائره يرجع إلى فرع فى قوله قبله :

وفرع يزين المتن أسود فاحم اثيث كقنْو النخلة المتعثكل [٨]

الغرابة

هى كون الكلمة غير ظاهرة المعنى ولا مألوفة الأستعمال عند خلص العرب (لا عند المولدين لأن كثيرا مما فى المعاجم غريب عندهم) .

ولذلك سببان [٩] :

١- أحتياجهما إلى بحث وتفتيش فى كتب اللغة ، ثم يعثر على معناها بعد

---

(١) الصغير الرأس .

(٢) جمع طسوج الفرية ونحوها .

(٣) الموضع الخشن .

(٤) الماء العذب .

(٥) صوت الضفادع .

(٦) السائل من ماء أو دمع .

(٧) غدائره اى ذوائبه جمع غديرة وهى الشعر المشدود بخيوط على الراس ومستشزرات أى مرتفعات وتضل تغيب والمدارى جمع الة تعمل من حديد أو خشب على شكل سن من اسنان المشط او اطول منه يسرح بها الشعر المتلبد والمثنى المفتول وضده المفتول وضده المرسل .

(٨) الفرع الشعر والاثيث الكثير والقنو الكباسة والمتعثكل كثير العثاكيل اى العيدان التى عليها البسر ومراده من كل ذلك الدلالة على وفرة شعرها وكان من عادة نساء العرب ان تشد قسما من الشعر كالرمانة ثم ترسل فوقه المثنى والمرسل .

(٩) لأن الغرابة أما فى الجوامد والمصادر المشتقات باعتبار مبادئها اى أصولها وهو القسم الأول ، وأما فى المشتقات باعتبار هيئاتها وهو القسم الثانى .

كمسحنفرة [1] وبُعاق [2] وجرْدَحل [3] وجُحيش بمعنى فريد مستبد برأيه فى قول تابط شرا يصف ابن عم له بكثرة الترحال :

يظل بموْماة ويُمسى بغيرها جحيشا ويعرورى ظهور المسالك [4]

وهمرجلة وزيزم فى قول ابن جحدر :

حلفت بما أرْقلتْ حوله همرْجلة خلقتُها شيْظم
وما شبرقت من تنُوفية بها بهما من وَحى الجن زيْزمُ [5]

وربما لا يعثر على معناها كجحلنجع قال فى اللسان قال ابو تراب : كنت سمعت من أبى الهميسع حرفا وهو جحلنجع فذكرته لشمر بن حمدويه وتبرأت إليه من معرفته وكان أبو الهميسع من أعراب مدين لا تفهم كلامه وأنشدته ما كان انشدنى .

ان تمنعى صوْبَك صوب المدمع يجرى على الخد كضئب الشعثع
و،طمحة صبيرها جحلنجع لم يحضها الجدول بالتسوع [6]

قال فى المثل السائر ومن الغريب ما يعاب استعماله فى النثر دون النظم كلفظ مشمخر فى أبيات بشر فى وصف الأسد :

وأطلقت المهنّد من يمينى فقدّ له من الأضلاع عشْرا
فخر مضرّجا بدم كأنى هدمّت به بناء مشمخرًا [7]

ولفظ الشدنية وهى ضرب من النوق فى قول ابى تمام :

---

(١) اى متسعة . (٢) المطر . (٣) الوادى .

(٤) الموماة المفازة ويقال للمستبد برأيه جحيش وحده بالتصغير عند ارادة الذم واعرورى الفرس ركبه عريانا .

(٥) الارقال ضرب من السير والهمرجلة الناقة السريعة واليظم الشديد الطويل من الابل والخيل وشبرقت قطعت والتنوفية المفازة والوحى الصوت الخفى وزيزم حكاية صوت الجن إذا قالت زى زى على زعمهم . يريد أنه حلف بما سارت حوله الناقة الشديدة السير العظيمة الخلق وبما قطعت من مفازة لا يسمع فيها إلا صوت الجن .

(٦) الصوب المطر المنصب والضئب حب اللؤلؤ والشعثع : اللؤلؤ والطمحة النظرة والصبير السحابة البيضاء وحضا النار حركها والجدول النهر والتسوع تحريك الريح الغصن والتذبذب وصيرورة الشئ انواعا .

(٧) قد : قطع والمضرج الملطخ بالدم والمشمخر العالى .

ثم قـال : واعلم أن كل ما يسوغ استعماله فى الكلام المنثور يسوغ استعماله فى المنظوم دون العكس وذلك شئ أستنبطه ودلنى عليه الذوق .

وقال الجاحظ فى البيـان والتبين : ورأيت الناس يديرون فى كـتبـهم ، وأن امرأة خاصمت زوجهـا إلى يحيى بن يعمر فأنتهرها مرارا **فقال له يحيى** : ان سـألتك ثمن شكرها وشبرك انشأت تطلعها وتضهلها (٢) ، فأن كـانوا قد رووا هذا الكلام لكى يدل على فصاحة وبلاغة فقد باعده الله من صفة البلاغة ، وأن كانوا فعلوا ذلك لأنه غريب فأبيات من شعر العجَّاج والطرماح تأتى لهم مع الوصف الحسن على أكثر من ذلك :

٢- أحتياجها إلى التخريج على وجه بعيد حتى يفهم منها المعنى المقصود نحو مسرجا وصفا للأنف فى قول رؤية بن العجَّاج (شاعر إسلامى) :

ايّام ابدت واضـــحـــا مـــفلجـــا أغـــرَّ براقـــا وطرفـــا ابرجـــا
ومـــقلة وحـــاجـــبـــا مـــزجّجـــا وفـاحـمـا ومـرسنا مـســرجـا (٣)

فالمرسن الأنف ولا يدرى ماذا أراد بوصفه بمسرج ، ومن ثم أختلف أئمة اللغة فى تفسيره فابن دريد قال هو من قولهم للسيوف سريجية أى منسوبة إلى حداد يسمى سريجا فهو يريد تشبيهه بالسيف السريجى فى الدقة والأستواء ، وابن سيـــده **صاحب المحكم قـال** : هو من السراج فهـو يقصد أنه شبيه به فى البريق واللمعان ، وهذا قريب من قولهم سرجَ وجهه بالكسر أى حسن ، وسرج الله وجهه بهَّجه وحسَّنه .

وعلى كـلا الحـالين فـهـو غـيـر ظاهر الدلالة على ذلك المعنى ، لأن مـادة فـعل

---

(١) الايضاع نوع من السير والوجناء عظيمة الوجنتين والادلاج والأسراء من سرى الليل .

(٢) الشكر بفتح الشين وكسرها عضو التناسل والشبر النكاح وضهل فلان حقه نقصه وطله مطله .

(٣) الضمير فى ابدت يعود إلى محبوبته ليلى فى الأبيات قبله وواضحا أى فما فيه أسنان واضحة والفلج تباعد ما بين الأسنان والأغر الأبيض والبريق اللمعان والبرج بالتحريك عظم العين وحسنها والتزجيج الترقيق مع تقويس وفاحما أى شعرا أسود كالفحم .

بالتشديد إنما تدل على مجرد نسبة شيئ إلى أخر لا على التشبيه ، فدلالتها عليه بعيدة ، وقريب من هذا أمتناع أستعمال اللفظ المشترك بين معنيين فأكثر بدون قرينة لما فيه من دخول الحيرة على السامع كأستعمال اللفظ المشترك بين المعنى وضده إلا إذا وجدت قرينة تخصصه بالمراد نحو عزر فإنه لفظ مشترك بين التعظيم والاهانة فلا تقول لقيت فلانا فعزرته إلا بقرينة ومن ثم لم يستعمله القرآن الكريم إلا مع القرينة فقال ﴿ فالذين آمنوا معه وعزروه ونصروه ﴾ فذكر النصر قرينة على إرادة التعظيم .

مخالفة القياس

كون الكلمة غير جارية على القانون الصرفى المستنبط من كلام العرب كجمع ناكس على نواكس بمعنى مطاطئى الرؤوس فى قول الفرزدق :

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم خضع الرقاب نواكسَ الابصار

« مع أن فواعل إنما تنقاس فى وصف لمؤنث عاقل لا لمذكر كما هنا » وكفك الأدغام فى أجلل من قول أبى النجم بن قدامة من رجّاز الإسلام :

الحمد لله العلى الأجلل أنت مليك الناس ربا فاقبل

وأستعمال همزة القطع بدل همزة الوصل فى قول جميل :

ألا لا أرى أثنين أحسن شيمة على حدثان الدهر منى ومن جمل (١)

وعكسه فى قوله – ان لم اقاتل فالبسونى برقعا .

فهذا وأمثاله قبيح يشين الكلام ويذهب بمائه (٢) .

قال فى الصناعتين : وإنما أستعمل ذلك القدماء لأنهم كانوا أصحاب بداية ، والبداية مزلة ، مع أن أشعارهم لم تكن تنقد عليهم ، ولو نقدت كما تنقد على شعراء هذه الأزمنة ويبهرج (٣) من كلامهم ما كان فيه أدنى عيب . لتجنبوه .

---

(١) الشيمة الخلق والحدثان نوائب الدهر وجمل محبوبته بثينة وكان يدللها بجمل .

(٢) حسنه ورونقه .

(٣) البهرج الردئ .

وقال القاضي عبدالعزيز الجرجاني صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه : ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم وأعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والاعلام الحجة – لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبا مترذلا ومردودا منفيا ، لكن هذا الظن الجليل ستر عليهم ونفى الظنة عنهم فذهبت الخواطر فى الذب عنهم كل مذهب وقامت فى الاحتجاج لهم كل مقام أ هـ .

ويستثنى من ذلك ما ثبت عن العرب من الشواذ نحو ابى يابى [1] وعور [2] واستحوذ [3] وقطط [4] شعره .

الكراهة فى السمع

* هى أن تمج الكلمة الاسماع ، وتأنف منها الطباع لوحشيتها وغلظتها كالجرشّى بمعنى النفس فى قول ابى الطيب يمدح سيف الدولة :

مبارك الاسم أغرّ اللقب كريم الجرشى شريف النسب [5]

وكالنقاخ فيما انشده شمر :

وأحمق ممن يلعق الماء قال لى دع الخمر واشرب من نقاخ مبرّد [6]

لكن البصير بصنعة الكلام يعلم أن استثقال الطبع لما يسمع ، أنما يتصور من جهة غرابة الكلمة ووحشيتها ، ففى ذكر الغرابة غنية عن ذكرها .

تدريب أول

بين ما أخل بفصاحة الكلمات التى وضعت بين قوسين ،

قال المتنبى يمدح سيف الدولة :

---

(١) قياس مضارعة الكسر لان المفتوح العين لا يكون إلا إذا كانت عين ماضيه او لامه حرف حلق كسال ونفع .

(٢) القياس فيه عار لتحرك الواو وانفتاح ما قبلها .

(٣) القياس استحاذ . (٤) تجعد .

(٥) مبارك الاسم لان اسمه على من العلو وأغر اللقب اى مشهورة لأنه سيف الدولة .

(٦) يلعق . يلحس والنقاخ العذب من الماء .

١- ومـــا أرضى لمقلتـــه بحلم ... إذا انتبهت توهمه «ابتشاكا» [١]

٢- لم يلقـــهـــا الا بشكة باسل ... يخشى الحوادث حازم «مستعدد» [٢]

٣- يا نفس صـــبـــرا كل حى لاق ... وكل «اثنين» إلى افـــتـــراق

٤- فلا يبرم الامر الذى هو «حالل» ... ولا «يحلل» الامـــر هو يبـــرم

٥- أن بنى للئـــام زهـــده ... مـالى فى صـــدورهم من «مـــوددة»

٦- كتب بعد امراء بغداد رقعة طرحها فى المسجد الجامع حين مرضت امه فقال سين امرؤ ورعى دعا لامرأة «انقحلة» ، «مقسئنة» فقد منيت بأكل الطرموق فأصابها من اجله «الاستمصال» ان يمن الله عليها «بالاطرغشاش» و «الأبرغشاش» [٣] .

الاجابـــة

الكلمـــة	الحكـــم	الســـــبب
الابتـــشـــاك	غريبـــة	لقلة استعمالها ومن ثم قال الصاحب ابن عباد لم يسمع هذا اللفظ فى شعر قديم ولا محدث
مـستـعـدد	مخالف للقياس	إذ الواجب فى هذه الحـــالة الأدغـــام
اثـــنـــين	» »	إذ جعل همزة الوصل همزة قطع وأثبتها
حـــــالـل	» »	إذ الواجب الأدغام فى مثل هذا
يـــحـــلـــل	» »	» » »
مـــــوددة	» »	» » »
انقـــحـلة	غريبـة متنافرة	لقلة الاستعمال وثقل النطق
مـقـسـئنة	غريبـة	» » »
الأستمصال	غريبـة متنافرة	» » »
الأطراغشاش	» »	» » »
الأبرغـشـاش	» »	» » »

(١) الابتشاك الكذب والحلم والرؤيا التى يراها النائم . (٢) الضمير يعود إلى الحرب والشكة الخصلة والباسل الشجاع .
(٣) انقحلة يابسة ومقسئنة مسنة عجوز ومنيت ابتليت والطرموق الحفاش والاستمصال الاسهال والاطرغشاش والابرغشاش البرء من المرض .

تدريـــب ثـــان

بين ما أخل بفصاحة الكلمات التى وضعت بين قوسين .

١- قال ابن نباتة فى خطبة له يذكر أهوال يوم القيامة .

(اقمَطَر) وبالها ، و (أشمخر) نكالها ، فما ساغت ولا طابت [١] .

٢- يوم (عصبصب) و (هلوف) ملا السجسج طلا [٢] .

٣- قد قلت (اطلخم) الامر وانبعثت عشواء تالية غبسا «دهاريسا» [٣]

٤- نعم متاع الدنيا حباك به أروع لا «جيدَرُ» ولاجبس [٤]

٥- تقى نقى لم يكثر غنيمة بنكهة ذى قربى ولا (بحقلد) [٥]

٦- قال امرؤ القيس حين ادركته المنية وكان قد ذهب الى ملك الروم يستنجده على قتلة ابيه ، رب جفنة (مثعنجرة) وطعنة (مسحنفرة) ، وخطبة مستحضرة ، وقصيدة محبرة ، تبقى غدا بأنقرة [٦] .

---

(١) أقمطر اشتد والوبال الثقل والوخامة واشمخر طال .

(٢) العصبصب الشديد الحر والهلوف الذى يستر غمامه شمسه والسجسج الأرض السهلة والطل المطر الندى او المطر القليل .

(٣) اطلخم اشتد وعظم والدهاريس الدواهى والعشواء الناقة الضعيفة البصر والغبس جمع اغبس وغبساء وهى الشديدة الظلمة وهو لابى تمام وبعده :

لى حرمة بك أضحى حق نازلها وقفا عليك فدتك النفس محبوبا

(٤) حباك اعطاك والأروع والمعجب والجيدر القصير والجبس الثقيل .

(٥) النهكة الغلب والحقلد الأثم .

(٦) المثعنجرة الملأى والمسحنفرة المتسعة وانقرة بلد بآسيا الصغرى .

الاجابـــة

الكلمـــة	الحكـــم	الســـبب
اقـــمطر	متنافـرة	لثقـل النطق بها
اشـمـخـر	غريبـــة	لقلـة الأستعمال
عـصـبـصب	»	» »
هـــلّوف	»	» »
اطـلـخـم	غريبة غليظة فى السمع	لقلة أستعمالها ووجشيتها
دهـاريـس	» » » »	لقلة أستعمالها ووجشيتها
جـيـدر	غريبة	» » »
حـــقـلـد	»	» » »
مـشنجـرة	متنافرة	» » وثقل النطق بها
مـسحنفـرة	»	» » » »

تمريـــن (١)

بين ما أخل بفصاحة الكلمات التى وضعت بين قوسين :

١- تشكو الوجى من (أظلل واظلل) من طول امـلال وظهـر مملل [١]

٢- فأرحـام شعـر تتـصـان (الدنثة) وأرحـام مـال مـانى تتـقـطّع [٢]

٣- رواق العـز حـولك (منسـبطر) وملك علىّ ابنك فى كـمـال [٣]

٤- لأنـسـب اليـــوم ولاخـلـة (اتسع) الفـتق على الراقع [٤]

٥- فـأيقـنت أنى عـند ذلك ثائر غـداتئـذ أو هالك فى (الهـوالك) [٥]

---

(١) الوجى الحفى والأظل باطن خف البعير وبعير مملل أكثر ركوبه حتى دبر ظهره

(٢) ثنى تتأخر ، وتتقطع تتمزق .

(٣) منسبطر ممتد .

(٤) الخلة الصداقة والفتق الشق والراقع مصلح الفتق .

(٥) الثائر الذى لا يبقى على شئ حتى يدرك ثاره .

٦- قال أبو علقمة يوما لحاجمه ، أرهف ظبات المشارط ، وأمرَّ المسح ، (وأستنجل) الرشح وخفف الوطء ، وعجل النزع ، ولا تكرهنَّ ابيًّا ، ولا تردّن اتيا فقال له الحجام ليس لى علم بالحروف [١] .

تمريـــن (٢)

بين ما أخل بفصاحة الكلمات التى وضعت بين قوسين :

١- جرت سحا فقلت لها (اخبريني) نوى مشمولة فمتى اللقاء [٢]

٢- مهلا اعاذل قد جربت من خُلقي أنى أجـــود لأقـــوام وأن (ضننوا)

٣- من كلام ام الهيثم الأعرابية لأبى عبيدة الراوية وقد عادها فى علة اصابتها ، كنت وحمى (سدكة) ، وشهدت مأدبة ، فأكلت (جُبْجُبة) ، من صفيف (هلْعة) فاعترتنى (زلخة) ، فقيل لها أى شئ تقولين ، فقالت أو للناس كلامان والله ما كلمتكم إلا بالعربى الفصيح [٣] .

٤- يا نرجس الدنيـــا أقم ابدا (للأقتراح) ودائـــم النّخـــب [٤]

٥- قال بعض الأدباء لكاتبه يوصيه بحسن الجلسة للكتابة والاستماع لما يملى عليه ، الصق روانفك (بالجبوب) ، وخذ المسطر (بشناترك) ، وأجبل (حتدورتيك) إلى (قيهلى) ، حتى لا أنفى نفية ، إلا أودعتها (حماطة جلجلاتك) [٥] .

---

(١) أرهف رفق والظبات جمع ظبة وهى السيف والموسى والمشارط جمع مشرط وهو مبضع الحجام الذى يشرط به الجلد واستنجل استخرج والرشح النز والابى الممتنع والاتى الجائى والحروفهنا اللغات .

(٢) السح الشديدة والنوى البعد وهو خبر لمبتداء محذوف اى هذه والمشمولة العامة .

(٣) سدكة مشتهية للطعام والجبجبة كرش يحشى باللحم المقطع والصفيف الشواء والهلعة انثى المعز والزلخة وجع فى الظهر .

(٤) الأقتراح الابداع ،والاختيار والنخب الشربة العظيمة من الخمر وغيرها .

(٥) الروانف جمع راتفة الالية والجبوب الارض والقلم والشناتر الاصابع والحندورتان حدقتا العين والقيهل الوجه والحماطة حبة القلب والجلجلان الصدر .

فصاحة الكلام

يراد بالكلام هنا ما يشمل المركب التام والناقص [1] .

وفصاحته تكون بسلامته من كل ما يتعلق به معناه وينبهم مغزاه ، وإلا كان ومردودا خارجا عن حدود البلاغة ، ورسوم الفصاحة ، ولو أحتوى على أجلّ المعانى وأشرفها وإنما يتم له ذلك إذا عرى عن الأشياء الأتية :

١- تنافر الكلمات مجتمعة ، ويدخل فيه كثرة التكرار وتتابع الأضافات .

٢- ضعف التأليف .

٣- التعقيد اللفظى .

٤- التعقيد المعنوى .

تنافر الكلمات - المعاظلة [2] اللفظية

هو وصف يعرض للكلمات مجتمعة فيوجب ثقلها وأضطراب اللسان عند النطق بها ، وقد علم بالأستقراء أن منشأه أما :

١- تكرير حرف أو حرفين من كلمة فى المنثور أو المنظوم ، وهو قسمان

(أ) ما أشتد ثقلة وتناهى كالذى أنشده الجاحظ :

وقبر حرب بمكان قفرُ وليس قرب قبر حرب قبرُ [3]

فأنت ترى أن قافاته وراءاته قلقلة نابية ، وكأنها سلسلة تتبرأ بعض حلقاتها من بعض .

(ب) ما كان فيه بعض الثقل كقول أبى تمام :

---

(١) كالمركب الاضافى والمركب التقييدى . وهو مجاز من إطلاق الخاص على العام .

(٢) عاظل الكلام عقده ووالى بعضه فوق بعض .

(٣) حرب هو حرب بن أمية بن عبد شمس ولشدة الثقل فيه زعموا إنه من شعر الجن قالوه لما قتلوه بنار حية منهم ودسوه بناحية بعيدة وقفر نعت مقطوع للضرورة أو هو خبر والباء بمعنى فى أى فى مكان .

كـريم متى أمدحه أمدحه والورى معى وإذا ما لمته لمته وجدى [1]

وقول المتنبى :

كـيف ترثى التى ترى كل جـفن راءها غير جفنها غير راقى [2]

فتكرار الحاء والهاء المتقاربتى المخرج فى بيت أبى تمام ، والجيم والراء فى أكثركلمات بيت المتنبى ، أوجب الثقل فيهما .

وقال بعض الوعاظ فى كلام أورده « حتى جنات وَجنات جنّات الحبيب » فلما سمعه بعض الحاضرين صاح وقال ، سمعت جيما فى جيم فصحت .

٢- إيراد أفعال يتبع بعضها بعضا بدون عطف ، سواء أختلفت بين المضى والأستقبال نحو قول القاضى الأرجانى يحدث عن الشمع :

بالنار فرقت الحوادث بيننا وبها نذرت أعود أقتل روحى [3]

أم لم تختلف كقول المتنبى يمدح سيف الدولة :

أقل أنل أقطع أحمل على سل أعد زد هش بش تفضل أدن سر صل [4]

فورود نذرت أعود أقتل متتابعة على تلك الشاكلة فى البيت الأول جاء ثقيلا متعاظلا ، كما أن مجئ أفعال الأمر متكررة فى البيت الثانى جعل للثقل فيها حظا عظيما - فأن جاءت الأفعال مع حرف العطف لم تكن فى الثقل كالأول نحو قول عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن .

أحل وأمر وضرّ وانفع ولن وأخْشن وأبرر ثم أنتدب للمعالى [5]

---

(١) وفيه عيب آخر وهو مقابلة المدح باللوم وإنما يقابل بالذم وكأنه أراد أن ينفى الذم عنه بنفية اللوم بالطريق الأولى .

(٢) راءها رآها فحصل فيه أعلال بالقلب بتقديم الألف وتأخير الهمزة ورقا الدمع انقطع ، يريد أنها لا ترحم باكيا لانها تحسب الدمع فى أجفان العشاق خلقيا .

(٣) يقول بلسان الشمع انه ألف العسل وهو أخوه الذى ربى معه ، لكن النار فرقت بينه وإنه نذر أن يقتل نفسه بها أيضا من ألم الفراق .

(٤) أقل من الأقالة واقطع من الأقطاع لأرض ونحوها وعل من العلو وصل أى بالعطية .

(٥) أبرر من قولهم أبر اليمين أمضاها على الصدق وأنتدب لكذا ساسها .

٣- إيراد صفات متعددة على طريق واحدة كقول المتنبى فى المديح وقد أولع كثيرا بهذا النوع :

دان بعيد محب مبغض بهج اغر حلو ممر لين شرس
ند أبى غر واف اخى ثقة جعد سرنة ندب رضى ندس (١)

ولا يخفى ما فيه من الثقل فما أشبهه بسلسلة طويلة متصلة الحلقات .

٤- تعاقب الأدوات ومجئ بعضها أثر بعض كمن والى وفى وعن وعلى كقول أبى تمام :

كأنه فى أجتماع الروح فيه له فى كل جارحة من جسمه روح (٢)

وقول المتنبى يصف فرسا :

وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد (٣)

فمجئ فى بعد له فى البيت الأول ، ولها منها عليها فى البيت الثانى ، أورث فيهما ثقلا جعل اللسان يتعثر عند النطق بهما ، قال صاحب الصناعتين ، وسبيل تلافى ذلك ان تفصل بين الحرفين كأن تقول أقمت به شهيدا عليه .

٥- تتابع الأضافات كما تقول سرج فرس تابع الأمير ، وعليه ورد قول ابن بابك .

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعى فأنت بمرأى من سعاد ومسمع (٤)

قال فى دلائل الأعجاز : ومن شأن هذا الضرب ان يدخله الاستكراه ، قال الصاحب بن عباد ، إياك والأضافات المتداخلة ، وذكر إنه يستعمل فى الهجاء كقوله :

---

(١) الشرس الصلب هناوالفرى المغرى بفعل الجميل وجعد الماضى فى الأمور والسرى الشريف والنهى العاقل والندب السريع فى أموره والندس العارف البحاثة ، يريد إنه محب لأهل الفضل مبغض لأهل النقص يبهج بالقصاد ويحلو لأوليائه ويمرعلى أعدائه .

(٢) الجارحة العضو يريد انه يقظ نشيط .

(٣) الغمرة الشدة والسبوح الفرس الحسن العدو الذى لا يتعب راكبه كأنه يسبح فى الماء يريد إنه يعينه على الشدائد وله شواهد دالة على كرم خصاله .

(٤) الجرعى تانيث الأجرع وهى الرملة لاتنبت شيئا والحومة معظم الشئ والجندل الحجارة والسجع هديل الحمام . المعنى اطربى لان الحبيبة تراك وتسمعك .

يا علُى بن حـــمـــزة بن عـــمـــارة أنت والله ثلجـة فى خـيـاره [1]

(تنبـيـه) لا يقبح القسمان الاخيران إلا إذا أوجبا ثقلا على اللسان ، وإلا فلا يخلان بالفصاحة ، فقد تكررت الأدوات وكانت حسنة مليحة فى قول قَطَرى بن الفجَاءة :

ولقـــد أرانى للرمـــاح دريئـــة من عن يمينى مـرة وأمـامى [2]

كما تكررت الأضافات ولطفت فى قوله تعالى ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾ وقول ابن المعتز :

وظلت تدير الراح أيدى جـــآذر عـتاق دنانير الوجوه ملاح [3]

ومن ذلك تعلم إنه لا وجه لعد هذين القسمين بعيدين عن التنافر .

ضعف التأليف

هـو أن يكون تأليـف الكـلام مخالفا لمـا أشتـهـر مـن قـوانـين النحو المشـهـورة كوصل الضـميرين وتقديـم غير الأعرف (مع وجـوب الفصـل فى نحو هـذا) كقوله المتنبـى :

خلت البـلاد من الغـزالة ليلهـا فأعلضـهـاك الله كى لا تحـزنا [4]

وكنصب المضارع بلا ناصب نحو :

أنظرا قـــبل تلومـــانى إلى طلل بين النقـا والمنحنى [5]

وكحذف نون يكن فى الجزم حين يليها ساكن نحو :

---

(١) قوله ثلجة فى خياره أى خياره فى ثلجة ، وفى هذا اشتباه من عبد القاهر لانه ليس فيه تتابع اضافات .

(٢) الدريئة الحلقة التى يتعلم عليها الطعن والرمى (النشان) .

(٣) الراح الخمر والجآذر جمع جؤذر ولد البقر الوحشية تشبه به الحسان لجمال عينيه ، والعتاق النجائب ودنانير الوجوه اى وجوههم متلألئة كالدنانير .

(٤) الغزالة الشمس ، يريد ان البلاد إذا خلت من الشمس ليلا جعلك الله عوضا منها .

(٥) الطلل ما بقى من آثار الديار والنقا والمنحنى موضعان .

لم يك الحق ســـوى أن هاجـــه رسم دار قد تعفَّت بالمـرْ [1]

وكالاضما رقبل الذكر لفظا ومعنى وحكما [2] فى قول حسان بن ثابت :

ولو أن مـجـدا اخلد الدهر واحـدا من الناس أبقى مجده الدهر مطعما [3]

التعقـيد

هوالا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى المراد . ولذلك سببان . أحدهما يرجع إلى خلل فى النظم والتركيب وهو التعقيد اللفظى . وثانيهما يرجع إلى المعنى وهو التعقيد المعنوى .

التعقيد اللفظى [4]

حقيقته أن تكون الألفاظ مرتبة لا على وفق ترتيب المعانى . فيفسد نظام الكلام وتاليفه بسبب ما يحصل فيه من تقديم وتأخير ونحو ذلك كتقديم الصفة على الموصوف ، والصلة على الموصول .

وهو مذموم مرفوض عند أهل البيان لأنه يوجب أختلال المعنى وأضطرابه ، وذلك ضد الفصاحة التى هى ظهور وأبانة ، ومن ثم قال العتابى : الألفاظ أجساد والمعانى أرواح ، وإنما تراها بعين القلوب ، فإذا قدمت منها مؤخرا أو أخرت منها مقدما ، أفسدت الصورة وغيرت المعنى ، كما لو حول رأس إلى موضع يد أو يد إلى موضع رجل فأن الخلقة تتحول والحلية تتغير .

وأكثر من أستعمله الفرزدق وكأنه كان يقصده لأن مثله لا يجئ إلا متكلفا ، إذ لو

---

(١) هاج ثار ورسم الدار أثرها وتعفت درست وأضمحلت والمرر موضع .

(٢) فان تقدم الضمير لفظا وتأخر معنى جاز نحو ضرب غلامة محمد وكذا ان تقدم لفظا وتاخر حكما نحو نعم رجلا على .

(٣) يرثى مطعم بن عدى احد رؤساء المشركين وكان يدافع عن النبى عليه الصلاة والسلام .

(٤) قد يحصل التعقيد باجتماع عدة أمور موجبة لصعوبة فهم المعنى وان كان كل منها جاريا على قانون النحو فلا يغنى ذكر ضعف التاليف عنه .

خلى الإنسان ونفسه تجرى على سجيتها فى الأسترسال لم يعرض لها شئ من هذا النوع فمن ذلك قوله يمدح الوليد بن عبدالملك :

إلى ملك مـــا أمـــه من مـــحـــارب ابوه ولا كـانت كليب نصاهره (١)

يريده إلى ملك أبوه ليست أمه من محارب ، فقدم وأخر حتى أيهم المعنى .

وقوله فى البيت المشهور الذى جرى مجرى المثل فى التعقيد يمدح به إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى خال هشام بن عبد الملك :

ومـــا مـــثله فى الناس إلا مملكا أبو أمـــه حى أبوه يقـــار به (٢)

مراده وما مثل هذا الممدوح فى الناس حى يقاربه ويشبهه فى الفضائل الا مملكا أبوأم ذلك المملك أبو الممدوح ، فيكون الممدوح خال الملك وخلاصة ذلك إنه لا يماثله الا ابن اخته .

فانظر رعاك الله كيف عقد المعنى وصار به الى التعمية دون الإفصاح ، ولهذا قال الرمانى ، قد أجتمع فى البيت أسباب الأشكال الثلاثة ، سوء الترتيب وبه تغير نظام الكلام ، وسلوك الطريق الا بعد فى قوله ابو أمه أبوه وكان بجزئه أن يقول خاله وإيقاع مشترك الألفاظ فى قوله حى يقاربه ، لأنها لفظة تشترك فيها القبيلة والحى من سائر الحيوان بالحياة .

قال فى المثل السائر ومن أقبح هذا النوع قول الآخر :

فأصـــبحت بعد خط بهـجـتـهـا كأن قـفرا رسـومـهـا قلمـا (٣)

يريد فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلما خط رسومها ، ففصل بين الفعل الناقص وخبره ، وبين كأن وأسمها ، وبين المضاف والمضاف إليه ، وقدم خبر العباس بن الأحنف .

---

(١) محارب وكليب قبيلتان .

(٢) فيه فصل بين المبتدا والخبر وهو أبو أمه أبوه بالأجنبى الذى هو حى ، وبين الموصول والصفة أعنى حى يقاربه بالاجنبى الذى هو أبوه وتقديم المستثنى أعنى مملكا على المستثنى منه وهو حى وفصل كثير بين البدل وهو حى والمبدل منه وهو مثله .

(٣) الظاهر انه يصف ديارا درست وعفت آثارها .

التعقيد المعنوى

هو خفاء دلالة الكلام على المعنى المراد من أجل ما عاقها من اللوازم البعيدة والكنايات المفتقرة إلى وسائط ، أو اللوازم القريبة الخفية العلاقة ، مع عدم ظهور القرائن الدالة على المقصود فيعجز الكلام عن أداء المعنى ، كقول العباس بن الأحنف .

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

يريد أنه يتحمل الفراق وآلامه ، ويوطن النفس على الحزن والأسى ، عله يحظى بوصل يدوم ، وسرور لا ينقطع ، فطالما نال الصابرون أمانيهم ، وفرجت كروبهم ، وهذا المعنى مطروق لهجت به ألسن الشعراء والكتاب ، قال عروة ابن الورد :

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا ولم تدر أنى للمقام أطوّف

وقال أبو تمام :

آلفة النحيب كم افتراق ألمّ فكان داعية اجتماع (١)

وقيل للربيع بن خيثم وقد صلى ليلة حتى أصبح – اتبعت نفسك فقال راحتها أطلب .

إلا أن ابن الأحنف لم يتم له ما أراد على سنن قويم . فإنه كنى عما قصد بكنايتين أصاب فى أولاهما . المحز وطبّق المفصل . وأخطأ فى أخراهما وجه الحقيقة ، ولم يسلك المهيع الواضح فى الرمز والايماء إلي ما أراد – بيان هذا إنه دلّ بديئا بسكب الدمع على ما يلزم فرقة الأحباب من الحزن والكمد والتعب والنصب – فأصاب شاكلة الصواب . فان البكاء عنوان الحزن والامارة الدالة عليه . فيرمز به إليه حتى قالوا (ابكانى واضحكنى) على معنى ساءنى وسرنى . كما قال الحماسى :

ابكانى الدهر ويا ربما اضحكنى الدهر بما يرضى (٢)

---

(١) ألم نزل . والنحيب البكاء .

(٢) قبله : أنزلنى الدهر على حكمه . من شامخ عال إلى خفض .

ثم تلا ذلك فدل بجمود العين على ما يوجبه دوام التلاقى من الفرح والسرور لكن التوفيق لم يكن حليفه فى هذا . إذ الجمود إنما هو خلو العين من البكاء عند الداعية إليه . فهو كناية عن البخل بالدموع حين الحاجة إليها كما قال أبو عطاء يرثى ابن هبيرة .

الا أن عـــينا لم تجـــد يوم واسط عليك بجـارى دمـعـهـا لجَمـود

لا كناية عن السرور لأنه لو صح ذلك لجاز أن يدعى به فيقال لا زالت عينك جامدة . كما يقا لا أبكى الله عينك . ولا خفاء فى بطلان ذلك كما يرشد إليه قول أهل اللغة سنة جماد لا مطر فيها وناقة جماد لا لبن فيها . على معنى أن السنة بخيلة بالقطر والناقة لا تسخو بالدر .

وهكذا حال الكنايات التي أستعملها العرب لأغراض إذا غيرها المتكلم وأراد بها أغراضا أخرى كما إذا أستعمل قولهم بيته كثير الجرذان . كناية عن وسخ المنزل وسوء نظامه ، وقوله ابيض سربال الطباخ كناية عن نظافة الطاهى وحسن هدنامه – كان ذلك خروجا من سنن العرب وأستعمالاتهم وعد ذلك تعقيدا إذ هذا غير ما يتبادر إلي الفهم لأن العرب كنت بالأولى عن كثرة الطعام وبالثانية عن البخل .

تدريب أول

أذكر ما أخل بفصاحة الكلام فيما يلى :

١- تعال فان عاهدتنى لاتخوننى نكن مثل من ياذئب يصطحبان
٢- لما رأى طالبوه مصعبا ذعروا وكاد لو ساعد المقدور ينتصر
٣- لو كنت كنت كتمت السر كنت كما كنا وكنت ولكن ذاك لم يكن
٤- لما عصى أصحابه مصعبا أدوا إليه الكيل كيلا بصاع
٥- ولم أر مثل جيراني ومثلى لمثلى عند مثلهم مقام

الاجابـــة

١- فى البيت تعقيد لفظى . إذ تقديره نكن يا ذئب مثل من يصطحبان .

٢- فيه ضعف التاليف . لأن الضمير فى طالبوه يعود إلى مصعب وهو متاخر لفظا ومرتبة .

٣- فيه تنافر فى الكلمات ، أوجبه تكرار لفظ كنت عدة مرات .

٤- فيه ضعف التاليف . لأن الضمير فى أصحابه يعود إلى مصعب المتاخر لفظا ومرتبة .

٥- فيه تنافر فى الكلمات سببه تكرار لفظ مثل .

تدريـــبـاثـــان

أذكر ما أخل بفصاحة الكلام فيما يلى :

١- ولذا اسم اغطية العيون جفونها — من أنهـا عـمل السـيـوف عـوامل

٢- تجـمـعت فى فـؤداهم هـمم — ملء فـؤاد الزمـان أحـداها

٣- الاليت شعرى هل يلومن قومه — زهيـرا على مـاجـر من كل جـانـب

٤- لو لم تكن من ذا الورى اللذمنك — هو عـقـمت بمولد نسلهـا حـواء

٥- قـيـل انت أنت أو كنت منهم — وجـدك بشـر الملك الهـمـام

٦- جـواب مـسـائلى أله نظيـر — ولا لـك فـى سـؤالـك لا ألالا

الاجابـــة

١- فيه تعقيد لفظى لأن تقديره من أجل أن العيون عوامل عمل السيوف سميت اغطيتها جفونا .

٢- فيه تنافر أوجبه ثقل النطق بالهاء والميم مجتمعتين فى كلمتين .

٣- فيه ضعف التاليف . لأن الضمير فى قومه يعود إلى متاخر لفظا ورتبة .

٤- فيه تنافر . لثقل تاليف البيت وركة صوغه .

٥- فيه تعقيد وتنافر . لأن تقديره قبيل أنت على شرف قدرك ، أنت منهم وأنت أنت ، وإذ كنت منهم وجدك بشر فكفاهم بذلك فخرا .

٦- فيه تنافر . أوجبه تكرار لا عدة مرات ، حتى قال الصاحب بن عباد : ما قدرت ان مثل هذا البيت يلج سمعا وقد سمعت الفأفاء ولم أسمع بالألأ حتى رأيت هذا المتكلف المتعسف الذى لا يقف حيث يعرف .

تمرين(١)

اذكر سبب خروج مايأتى من الأساليب الفصيحة :

١- وأزور من كان له زائرا ... وعاف عافى العرف عرفانه [١]

٢- لم تر من نادمت الا كا ... لا لسوى ودك لى ذا كا

٣- وبه يضن على البرية لا بها ... وعليه منها لا عليها يوسى [٢]

٤- هو السيف الذى نصر بن أروى ... به عثمان مروان المصاب

٥- ونهنهت نفسى بعدما كدت أفعله [٣]

٦- الطيب أنت اذا اصابك طيبة ... والماء أنت اذا اغتسلت الغاسل [٤]

تمرين(٢)

١- وقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا ... قلاقل عيس كلهن قلاقل [٥]

٢- ليس الاك يا على هما ... سيفه دون عرض مسلول

٣- ومن جاهل بى وهو يجهل جهله ... ويجهل علمى انه بى جاهل

---

(١) أزور : عدل ، وعاف : كره ، والعافى : طالب المعروف ، والعرف : النوال والعطاء .

(٢) الضن : البخل والبرية : الخلق . يوسى : يحزن ، يريد انه يبخل بالممدوح على الناس كلهم لا بهم يبخل عليه .

(٣) نهنه : كف وزجر .

(٤) يريد انك اطيب من الطيب وأطهر من الماء اذا اغتسلت به .

(٥) قلقل حرك والحشا داخل الجوف وقلاقل الأولى جمع قلقلة وهى الناقة السريعة والثانية جمع قلقلة وهى الحركة ، وضمير كلهن للعيس لا للقلاقل ، والمعنى : حركت بسبب الهم الذى حرك نفسى نوقا خفافا فى السير سريعات الحركة .

٤- صان اللئيم وصنت وجهى ماله ... وونى فلم يبذل ولم اتبذل [١]

٥- فما من فتى كنا من الناس واحد ... به نبتغى منهم عديلا نبادله [٢]

٦- فستنتنى فجنتنى تجنى ... بتبجن يفتن غب تجنى [٣]

٧- زار داود دار اروى وأروى ... ذات دل اذا رأت داودا [٤]

فصاحة المتكلم

هى صفة راسخة فى نفس المتكلم يقتدر بها على التعبير عما يجول فى خاطره من الأغراض والمقاصد .

وبتلك الصفة يتمكن من صياغة ضرورب الكلام من مديح وهجاء وتهان ومراث وخطب محيرة ووسائل منمقة فى الوعظ والأرشاد والمفاخرات والمنافرات .

ولن يبلغ شاعر أو ناثر هذه المنزلة الا إذا كان ملما باللغة كثير الإطلاع على كتب الأدب ، محيطا بأسرار أساليب العرب ، حافظا لعيون كلامهم من شعر جيد وأثر مختار ، عالما بأحوال الشعراء والخطباء ، ومجالس الملوك والأمراء ، محيطا بعادات العرب وأخبار أيامهم .

البلاغة

تقع البلاغة وصفا للكلام ، والمتكلم ، لم يسمع وصف الكلمة بها .

بلاغة الكلام

بلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال التى يورد فيها مع فصاحته [٥] .

---

(١) الأصل صان اللئيم ماله وونى فلم يبذل وصنت وجهى ولم اتبذل .

(٢) تقديره فما فتى واحدا من الناس كنا نبتغى به عديلا نبادله منهم أى انه لا نظير له يكون عوضا منه .

(٣) تجنى آخر المصراع الأول اسم امرأة وبتجن أى بدعوى ذنب ويفتن يتنوع وغب عقب .

(٤) أروى اسم امرأة والدال الدلال .

(٥) فاذا قلت فلان مستعد للأمر لم يكن بليغا .

ولن يطابق الحال إلا إذا كان وفق عقول المخاطبين وأعتبار طبقاتهم فى البيان وقوة المنطق ، فللسوقة كلام لا يصح غيره فى موضعه والغرض الذى يبنى له ، ولسراة القوم والامراء فن اخر لا يسد مسده سواه ، ولقد أفصح عن ذلك الحطيئة حين خاطب عمر بن الخطاب فقال :

تحنن علـى هـداك المـليـك فـان لكل مـقـام مـقـالا

قال صاحب الصناعتين : وربما غلب سوء الرأى وقلة العقل على بعض علماء العربية فيخاطبون السوقى والمملوك والأعجمى بألفاظ أهل نجد والسراة كأبى علقمة إذ قال لطبيب (أجد رسيسا فى اسناخى وارى رجعا فيما بين الوابلة الى الاطرة من دايات العنق [1] فقال له الطبيب (متهكما) هى من وجع القرشى ، قال له وما يبعدنا منهم ياعدى نفسه ، نحن من أرومة واحدة ونجل واحدة ، قال الطبيب : كذبت وكلما خرج هذا الكلام من جوفك كان أهون لك قال : بل لك الهوان والخسارة والسبابا) .

ومما سبق تعلم أن :

١ – الحال (المقام) هو الأمر الذى يدعو المتكلم إلى إيراد خصوصية فى التركيب .

٢ – المقتضى (الاعتبار المناسب) هو الصورة المخصوصة التى تورد عليها العبارة .

٣ – مقتضى الحال هو ايراد الكلام على تلك الصورة .

فمثلا الوعظ حال ومقام يقتضى البسط والأطناب . وذلك البسط مقتضى وإيراد الكلام على صورة الأطناب مطابقة للمقتضى .

وكذا كون المخاطب منكرا يوم البعث حال يقتضى التأكيد ، والتأكيد مقتضى ، وكونك تخاطبه بقولك (أن يوم الساعة لا شك فيه) مطابقة لمقتضى الحال ، وهكذا مقام الذكى يخالف فى الخطاب مقام الغبى ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف لأن لكل منهما من الأعتبارات واللطائف ومايخالف ضده .

---

(١) الرسيس ابتداء الحمى اذا فتر الجسم والاسناخ منابت الاسنان والوابلة طرف الكتف والاطرة كل ما احاط بشئ ودابات العنق فقارها .

مراتب البلاغة

بلاغة الكلام متفاوتة لأن الألفاظ اذا ركبت لافادة المعانى المرادة منها حصل لها بالتركيب صور مختلفة لا يحصرها العد الا ترى ان طلبة الفرقة اذا كتبوا فى موضوع واحد فى منشئاتهم تناولوا معانى متقاربة أو متشابهة ، لكنهم يتفاوتون فى الأشياء الأتية :

١- العبارة التى ينشئونها .

٢- ترتيب المعانى .

٣- بسط الألفاظ أو إيجازها .

وكلما كان المتكلم اكثر مراعاة للمقتضيات والاعتبارات أزداد الكلام حسنا ، وكلما كان أوفى بها كان ابلغ ، وبالعكس اذا قل وفاؤه بتلك الخصوصيات المعتبرة عند البلغاء كان أقل مرتبة فى البلاغة ، ولا يزال ينزل حتى يصل إلى المرتبة السفلى فيلتحق عند البلغاء بأصوات الحيوان وأن كان صحيح الأعراب .

والمرتبة العليا وما يقرب منها هى مرتبة المعجز وهو كلام الله تعالى الذى عجز البشر قاطبة ان يأتوا بأقصر سورة من مثله ، وقد نزل فى أرقى العصور فصاحة وأكملها بلاغة ، ومع ذلك وجم العرب وخرست شقاشقهم مع طول التحدى وشد النكير عليهم وحقت له الكلمة العليا .

ثم يليه فى الرتبة كلام رسوله عليه السلام فقد أوتى من جوامع الكلم ما حارت فى أمره جهابذة الفصاحة وأساطين البلاغة ، ثم كلام البلغاء من العرب جاهليين وإسلاميين .

شواهد

من فصيح الكلام تشرح أسرار الفصاحة وتبين مراتب البلاغة .

القرآن الكريم هو الينبوع الذى لا يغيض ماؤه ، والشجرة التى لا ينقطع ثمرها والجديد الذى لا تبلى جدته ، فقد ضرب الأمثال . وتفجرت منه ضروب الحكمة ،

وقص علينا من أخبار الماضين وسير الغابرين ما فيه العبرة لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد .

وبسط ذلك بدائع الأساليب ، وبديع التراكيب ، أنظر إلى ما جاء فيه عند ذكر الحساب والصراط والميزان تجد اللفظ الجزل والقول الفصل نحو ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجئ النبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾ كما تجد السهل المهلهل خطابا لنبيه عليه السلام نحو ﴿ والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلا ﴾ إلى أخرها .

وقد أغترفت السنة النبوية من ذلك البحر وقطفت من تلك الرياض ، فأوتيت من موجز الحكم وجامع الكلم ما لا يزال نجعة الرائد ، وكعبة القاصد ، فمن جزلها قوله عليه السلام : ﴿ ياابن آدم تؤتى كل يوم برزقك وانت تحزن ، وينقص كل يوم من عمرك وأنت تفرح ، انت فيما يكفيك ، وتطلب ما يطغيك ، لا بقليل تقنع ، ولا بكثير تشبع ﴾ ومن مهلهلها وسهلها قوله عليه السلام ﴿ كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، واعدد نفسك فى الموتى ، فإذا أمسيت فلا تحدثها بالصباح ، وإذا صبحت فلا تحدثها بالمساء ، وخذ من صحتك لسقمك ، ومن شبابك لهرمك ، ومن فراغك لشغلك ﴾ .

وإذا شئت ايضاحا وبيانا ، وعلما وعرفانا ، فوازن بين قول النمر بن تولب يذم الحياة :

يود الفتى طول السلامة والغنى ... فكيف ترى طول السلامة يفعل
يكاد الفتى بعد اعتدال وصحة ... ينوء إذا رام القيام ويحمل

وقول الفند الزمانى :

ايا تملك يا تمل ... وذات الطوق والحجل
ذرينى وذرى عذلى ... فان العذل كالقتل

تجد المدى واسعا والهوة بينها سحيقة والتفاوت لا حد لغايته .

أو أقرن بين قول معن بن أوس فى الفخر :

لعمرك ما أهويت كفي لريبة ... ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي
وأعلم انى لم تصبنيي مصيبة ... من الدهر الا قد اصابت ذتى قبلي

وقول بشار بن برد :

ربابة ربة البيت ... تصب الخل فى الزيت
لها عشر دجاجات ... وديك حسن الصوت

تر عجبا عاجبا وتفاوتا فى الصنعة لا يحتاج إلى مراء او جدل :

وإن شاقك أن تعرف فاخر الكلام ورصينه ، وما يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، وما لا يكون لفظه اسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك ، وما قالوا فى مثله انه يدخل فى الأذان بلا استئذان ، فانظر قول الرقاشى فى العظة والاعتبار ﴿ سل الأرض من شق انهارك ، وغرس اشجارك ، وجنى ثمارك ، فان لم تجبك حوارا اجابتك اعتبارا ﴾ وقول بعض الكتاب : مثلك أوجب حقا لا يجب عليه ، وسمح بحق وجب له ، وقبل واضح العذر . واستكثر قليل الشكر . لا زالت اياديك فوق شكر أوليائك . ونعمة الله عليك فوق آمالهم فيك .

بلاغة[1] المتكلم

هي ملكة يقتدر بها على التصرف فى فنون الكلام ،أغراضه المختلفة ، ببديع القول وساحر البيان ، ليبلغ من المخاطب غاية ما يريد . ويقع لديه الكلام موقع الماءمن ذى الغلة الصادى . وتلك الملكة لا يصل اليها إلا من احاط بأساليب العرب خبراء . وعرف سنن تخاطبهم فى منافراتهم ومفاخراتهم ومديحهم وهجومهم واعتذارهم وشكرهم . ليلبس لكل حال لبوسها . ويراعى الخصائص والمقتضيات التى تناسبها .

---

(١) قال صاحب الصناعتين وصف المتكلم بالبلاغة من قبيل التوسع والمجاز وحقيقته بليغ الكلام كما تقول رجل محكم وتعنى احكام افعاله كما قال الله تعالى : حكمة بالغة . فوصف الحكمة بالبلاغة ولم يصف بها الحكيم .

انظر إلى النبى عليه السلام تجده راعى حال من يخاطبه فكتب الى أهل فارس بما يسهل ترجمته فقال : (من محمد رسول الله الى كسرى أبْرَوَيزَ عظيم فارسَ ، سلام على من أتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، فأدعوك بداعية الإسلام فانى أنا رسول الله إلى الخلق كافة ، ليُنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلم ، فان أبيت فأثم المجوس عليكَ) .

وكتب بضد هذا الى وائل بن حُجر الحضرمى وقومه ففخم لهم اللفظ لما عرف من فضل قوتهم على فهمه ، وعادتهم سماع مثله فقال (من محمد رسول الله إلى الاقيال العباهلة من أهل حضرموت باقامة الصلاة وايتاء الزكاة ، على النيعة الشاة ، والنيمة لصاحبها ، وفى السيوب الخمس ، لا خلاط ولا وراط ، ولاشناق ولا شغَار ، ومن أجبى فقد أربى ، وكل مسكر حرام [1] .

متممـــات

أولا : علمت مما سبق فى بيان تعريف الفصاحة والبلاغة ما يعتور الكلام من العيوب ، ويزرى بقيمته ويحط من قدره . فوجب ان تعرف بم تداوى هذه العيوب فتقول :

(أ) مخالفة القياس – يمكن تجنبها بالاطلاع على علم التصريف فهو الكفيل بمعرفة سنن المفردات العربية ونهج استعمالها ، الا ترى ان نافع بن ابى نعم وهو من اكابر القراء السبعة قدرا وأفخمهم شأنا قال فى معايش ، معائش بالهمز مع ان الياء [2] فيها ليست زائدة لانها من العيش ، فعيب عليه ذلك حتى ان ابا عثمان المازنى قال ان نافعا لم يدر ما العربية .

---

(١) الاقيال واحدة قيل بفتح القاف وهو الملك والعباهلة الذين اقروا على ملكهم والنيعة الأربعون من الغنم والنيمة الزائدة على الاربعين حتى تبلغ الفريضة الاخرى والسيوب المعادن ولاخلاط اي لا يخلط رجل ابله بابل غيره بقرة ليمنع الصدقة والوراط الخديعة والمعش والشياق ما بين الفريضتين حتى تنم والشغار ان يزوج كل واحد صاحبه امرأة على أن يزوجه أخرى بلا مهر والاجباء بيع الزرع قبل ان يبدو صلاحه .

(٢) ظن ان مفردها فعيلة فجمعها على فعائل وليس كذلك بل هى مفعلة بكسر العين فاصلها معيشة بكسر الياء فياؤها ليست كياء صحيفة فلا تنقلب فيالجمع همزة .

(ب) ضعف التأليف والتعقيد اللفظى – يتباعد عنهما بملاحظة قواعد النحو اذ هو الباحث عن كيفية استعمال المركبات على وجه الصواب .

وقد يشذ عن قانونه الخاصة بلّه العامة فينزل كلامهم إلى الدرك الأسفل ويكون عرضة للقادح ، انظر ما وقع فيه ابو نواس حيث يقول فى مدح الأمين :

ياخير من كان ومن يكون الا النبى الطاهر الميْمون

فرفع المستثنى فى موجب الكلام ، ومعرفة هذا من ظواهر النحو لا من خوافيه .

(جـ) الغرابة يسهل التباعد عنها بالاطلاع على متن اللغة ، فإذا تتبع المتكلم مشهور الكتب وأحاط بمعانى المفردات المأنوسة، عرف ان ما سواه مما يفتقر الى بحيث وتنقير ، أو تخريج على وجه بعيد فغريب .

(د) الاحوال ومقتضياتها – تعلم من دراسة علم المعانى .

(هـ) التعقيد المعنوى – يمكن التجافى عنه بدراسة علم البيان .

(و) وجره تحسين الكلام التى تكسوه طلاوة وتكسبه رقة ، بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضح الدلالة – تعرف من علم البديع .

(ز) التنافر – وملاك معرفته الذوق السليم والشعور النفسى .

ثانيا : علم البيان فى اصطلاح المتقدمين اسم جامع العلوم الثلاثة (المعانى والبيان والبديع) وعليه قول الجاحظ البيان اسم جامع لكل ما كشف لك المعنى ، وقول ابن المعتز ، البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول .

بعض الأئمة يسمى الثلاثة علم البديع لما فيها من بديع الصنعة ، كما يسمى بعضهم الأول علم المعانى والأخيرين علم البيان .

ثالثا : المتقدمين فى حدود البلاغة ورسومها ، كلمات مجملة تقرب لك بعضا مما فصلناه ، منها قول محمد بن الحنفية – البلاغة قول تضطر العقول إلى فهمه بأيسر العبارة ، وقول ابن المعتز : البلاغة البلوغ الى المعنى ولما يطل سفر الكلام ، وقول ابن الاعرابى : البلاغة التقرب من البغية

ودلالة قليل على كثير ، وقول بعضهم هى قلة اللفظ وسهولة المعنى وحسن البديهة .

علم المعانى

هو قواعد يعرف بها كيفية مطابقة الكلام مقتضى الحال حتى يكون وفق الغرض الذى سبق له ، فيه تختزز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، فنعرف السبب الذى يدعو الى التقديم والتاخير ، والحذف والذكر ، والايجاز حينا والاطناب آخر ، والفصل والوصل الى غير ذلك مما سنذكر .

فمنه نعرف مثلا :

(١) ان العرب توجز اذ شكرت او اعتذرت .

(٢) ان العرب تطنب اذا مدحت .

(٣) ان الجملة الأسمية تأتي لافادة الثبات بمقتضى المقام .

فمتى وضع المتكلم تلك القواعد نصب عينيه لم يزغ عن اساليبهم ونهج تراكيبهم وجاء كلامه مطابقا لمقتضى الحال التى يورد فيها ، فالشكر حال يقتضى الايجاز ، وايراد الكلام على هذه الصورة مطابقة لمقتضى الحال .

(واضعه) أول من بسط قواعده الامام عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ فهو الذى هذب مسائله . وأوضح قواعده – وقد وضع فيه الائمة قبله نتفاً كالجاحظ وأبى هلال العسكرى الا أنهم لم يوفقوا الى مثل ما وفق اليه ذلكم الحْبر الجليل .

فائدته

(١) الوقوف على أسرار البلاغة فى منثور الكلام ومنظومه ، فنحتذى حذوهما وننسج على منوالهما ونعرف السر فى افتخار النبى عليه السلام بقوله ، انا افصح من

نطق بالضاد ، وقوله « اوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا . ونفهم وجه تعجيب الصحابة من فصاحته عليه السلام فقد روى ان ابا بكر رضى الله عنه قال له ما بالك يارسول الله افصحنا ولم تخرج من بين اظهرنا .

(٢) معرفة وجه اعجاز القرآن من وجهة ما خصه الله به من حسن التاليف . وبراعة التركيب . وما اشتمل عليه من عذوبة وجزالة . وسهولة وسلاسة فنقتنع ببلاغة وندرك السر فى فصاحته ، وكيف كان معجزه خالدة على وجه الدهر لا يبليها كر الجديدين ولا مرور الملوين .

وقد رتبنا الكلام فى هذا الفن على اثنى عشر بابا .